ورقة المداخلة:

الضابط اللغوي للتفسير العلمي عند الشاطبي من خلال كتاب الموافقات – دراسة ونقد

ملخص الداخلة:

لقد أظهر الشاطبي عبقرية علمية كبيرة في كتابه الموافقات، وقد بدأ الكتاب بوضع أصول وضوابط عامة كان من جملتها ما يتعلق بالتفسير العلمي للنصوص الشرعية في ضوء اللغة العربية ومعهود الأمة الأمية التي نزل فيها القرآن معجزا.

وقد أبدى اعتراضه جليا على التفسير العلمي لنصوص الشريعة، ومنع مما أحدثه الناس في إلصاق علوم الطبيعيات ونحوها وعده من التكلف والتمحل، واعتبر ذلك مخالفا لمعاني النصوص إذ إن السلف الصالح لم يأت عنهم ما يدلُّ على أنهم تحدثوا بذلك وكانوا أعلم الأمة بعلوم الدين

وهذه مداخلة بعنوان الضابط اللغوي للتفسير العلمي عند الشاطبي من خلال كتاب الموافقات – دراسة ونقد، نبين فيها مدى صواب أو خطأ ما اختاره الشاطبي رحمه الله.

ترجمة الملخص بالإنجليزية:

Al-Shatibi showed a great scientific genius in his book Al-Muwafaqat, and the book began with laying down principles and general controls, among them those related to the scientific interpretation of the legal texts in the light of the Arabic language and the norm of the illiterate nation in which the Qur'an was revealed miraculously.

He clearly expressed his objection to the scientific interpretation of the texts of the Sharia, and he prevented what people invented in attaching the natural sciences and the like to him, and he considered that to be inconsistent with the meanings of the texts, since the righteous predecessors did not come from them with evidence that they spoke of that and they were the most knowledgeable of the nation in the sciences of religion.

This is an intervention entitled The Linguistic Control of Scientific Interpretation of Al-Shatibi through the book Al-Muwafaqat - Study and Criticism, in which we show the extent of the rightness or wrongness of what Al-Shatibi chose.

التعريف بالشاطبي[1]:

***مولده ونسبه** هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشهير بالشاطبي، الإمام العلامة المحقق القدوة الحافظ الجليل المجتهد، كان أصوليًا مفسرًا فقيهًا، محدثًا لغويًا بيانيًا نظارًا، ثبتًا ورعًا صالحًا زاهدًا سنيًا، إمامًا مطلقًا، بحاثًا مدققًا جدليًا، بارعًا في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات وأكابر الأئمة المتفننين الثقات، له القدم الراسخ والإمامة العظمى في الفنون فقهًا وأصولًا وتفسيرًا وحديثًا وعربية وغيرها، مع التحري والتحقيق.

تميز رحمه الله تعالى باستنباطات جليلة ودقائق منيفة وفوائد لطيفة وأبحاث شريفة وقواعد محررة محققة، على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع، حريصًا على اتباع السنة، مجانبًا للبدع والشبهة، ساعيًا في ذلك مع تثبت تام، منحرف عن كل ما ينحو للبدع وأهلها، وقع له في ذلك أمور مع جماعة من شيوخه وغيرهم في مسائل، وله تآليف جليلة مشتملة على أبحاث نفيسة وانتقادات وتحقيقات شريفة.

*** شيوخه:**

أخذ العربية وغيرها عن أئمة منهم: الإمام المفتوح عليه في فَنِّها ما لا مطمع فيه لسواه بحثًا وحفظًا وتوجيهًا ابن الفخار البيري، لازمه إلى أن مات، والإمام الشريف رئيس العلوم اللسانية أبو القاسم السبتي شارح مقصورة حازم، والإمام المحقق أعلم أهل وقته الشريف أبو عبد اللَّه التلمساني، والإمام علامة وقته بإجماع أبو عبد اللَّه المقري، وقطب الدائرة شيخ الشيوخ الجلة الإمام الشهير أبو سعيد بن لب، والإمام الجليل الرحلة الخطيب أبو جعفر الشقوري، وممن اجتمع معه واستفاد منه العالم الحافظ الفقيه أبو العباس القباب والمفتي المحدِّث أبو عبد اللَّه الحفار وغيرهم.

*** تآليفه:**

ألَّف تآليف نفيسة اشتملت على تحريرات للقواعد وتحقيقات لمهمات الفوائد، منها شرحه الجليل على الخلاصة في النحو في أسفار أربعة كبار لم يؤلف عليها مثله بحثًا وتحقيقًا، فيما أعلم، وكتاب "الموافقات" في أصول الفقه كتاب جليل القدر لا نظير له يدل على إمامته، وبعد شأوه في العلوم سيما علم الأصول. قال الإمام الحفيد ابن مرزوق: "كتاب الموافقات المذكور من أقبل الكتب"- اهـ. وهو في سفرين. وتأليف نفيس في الحوادث، والبدع في سفر، في غاية الإجادة، وكتاب المجالس شرح فيه كتاب

---

1 - نيل الابتهاج بتطريز الديباج (ص: 48)، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» (1/ 23)

البيوع من صحيح البخاري، فيه من الفوائد والتحقيقات ما لا يعلمه إلا اللَّه، وكتاب الإفادات والإنشادات في كراسين فيه طرف وتحف ومُلح أدبيات وإنشادات، وله أيضًا كتاب عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، وكتاب أصول النحو، وقد ذكرهما معًا في شرح الألفية. ورأيت في موضع آخر أنه أتلف الأول في حياته وأن الثاني أُتلف أيضًا، وله غيرها وفتاوى كثيرة،

*** تلاميذه:**

أخذ عنه جماعة من الأئمة كالإمامين العلامتين: أبي يحيى بن عاصم الشهير، وأخيه القاضي المؤلف أبي بكر بن عاصم، والشيخ أبي عبد اللَّه البياني وغيرهم.

*** شعره:**

ومن شعره لما ابتلي بالبدع:

بُليتُ يا قومُ والبلوى منوعةٌ ... بمن أداريهِ حتى كادَ يرديني

دفعُ المضرةِ لا جلبٌ لمصلحةٍ ... فحسبي اللَّه في عقلي وفي ديني

*** وفاته:**

توفي يوم الثلاثاء الثامن من شعبان سنة تسعين وسبعمائة [790 هـ]

1- نبذة عن الإعجاز العلمي

الإعجاز العلمي تأخرت بداياته عن القرون السلفية الأولى، وإنما عرج عليه علماء الأمة بعد أن دعت الحاجة إلى الحديث عليه، ويعزو بعضهم البداية الحقيقة له إلى أبي حامد الغزالي، وحقيقة الأمر أنه يصعب تحديد نشوء الآراء جملة بل حتى المذاهب وإنما عندما يكثر المؤيدون ثم يشتهر فيهم من يبرز الرأي أو المذهب ينسب إليه الباحثون الأولية، وليس بالضرورة أن يكون هو السابق بحق.

وقد ذكر فهد الرومي حديث بداية التفسير العلمي فقال: (ونحن وإن كنا لا نعرف هذا الحدث باليوم أو بالسنة إلا أن العلماء اتفقوا على أن الإمام الغزالي المتوفى سنة 505هـ من أوائل المتكلمين في هذا النوع من التفسير وعلى هذا فيكون ظهوره على وجه التقريب في أواخر القرن الخامس الهجري، واتفقوا أيضًا على أن الغزالي نفسه أكثر من استوفى بيان هذا القول إلى عهده)[2].

كما ذكر محمد الشايع أن (منزع هذا النوع من التفسير للقرآن الكريم قديم، ويشتهر عند الدارسين أن الإمام الغزالي من أوائل المتكلمين في هذا النوع والمستوفين للكلام فيه إلى عهده حيث بسط القول في هذا الموضوع في كتابه إحياء علوم الدين، وكتابه الآخر: جواهر القرآن)[3]

وممن استطرد في هذا النوع من التفسير الإمام الفخر الرازي (606هـ) في تفسيره الكبير، وجاء بعد هؤلاء كل من الزركشي (794هـ)، والسيوطي (911هـ)، فتوسعا في ذكر هذا اللون من التفسير العلمي في كتابيهما في علوم القرآن البرهان والإتقان.

فهذه مقاربة توقفنا على بداية العناية بهذا اللون من التفسير العلمي وأنه تأخر إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ولو نظرنا إلى دواعي هذا التأخر لأمكننا القول بأن من جملة ذلك فشو المكتشفات والعلوم الدنيوية التي فشت العناية بها في أوساط الناس، وقد لمح المتبصرون بكتاب الله تعالى إشارات قرآنية توافق ولا تعارض تلكم العلوم فجنحوا للتفسير العلمي بعد ذلك.

2- موقف العلماء منه[4]:

---

2 - دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي (ص: 291)

3 - التفسير بمكتشفات العلم التجريبي بين المؤيدين والمعارضين، د. محمد الشايع، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الرابع 04 رجب 1411هفبراير 1991، ص: 20.

غالبا ما تكون العلوم المحدثة التي تمت إلى القرآن بصلة في بداياتها ما تجد تحفظ العلماء منها بحكم أن من تقدم من العلماء لم يتكلموا فيها وهم أهدى سبيلا وأقوم طريقا، وقد تحرج العلماء من كتابة المصحف ثم من نقطه ثم من شكله، ثم آلت كلمتهم إلى وفاق في قبول كل ذلك، لذلك لم يلبث بعض العلماء بعد التبصر بالحق من قضية التفسير العلمي وأم منها مجالا لا غضاضة في القول به والاستعانة به في هداية النص وربطهم بهذا الكتاب الخالد، وقد انقسم العلماء في الأخذ بالتفسير العلمي إلى فريقين أو ثلاثة على النحو الآتي:

1- المؤيدون للتفسير العلمي: وهم جملة من المتقدمين والمتأخرين، واستدلوا بعموم الأدلة التي تدل على أن القرآن بين كل شيء، ما ان التفسير العلمي يحقق فوائد كثيرة والتي من أهمها استمالة غير المسلمين إلى الإسلام وإقناعهم به ببيان إعجاز القرآن العلمي، وإقامة الحجة عليهم بذلك.

2- المعارضون: وكذلك هؤلاء يمثلهم طائفة من المتقدمين والمتأخرين، وأساس الاستدلال عندهم قائم على أن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد وليس بكتاب تفصيل لمسائل العلوم ونظرياته ودقائق الاكتشافات والمعارف، ومن طلب ذلك من القرآن فقد أساء فهم طبيعة هذا القرآن ووظيفته، كما اعتبروا أن التفسير العلمي مدعاة إلى الزلل لدى أكثر الذين خاضوا فيه، وأن تناول القرآن بهذا المنهج يضطر المفسر إلى مجاوزة الحدود التي تحتملها ألفاظ النص القرآني

3- المعتدلون: وتوسط فريق بغرض الجمع بين الرأيين، وقصد القرب من صواب الرأي، فلا رفض ولا إنكار للتفسير العلمي يمنع من إدراك وجوه الإعجاز الجديدة، ويدفع مزاعم القائلين بالعداوة بين الدين والعلم، ويمنع من استمالة غير المسلمين أو يحث على الانتفاع بقوى الكون، ولا تسليم مطلق للتفسير العلمي لأن إعجاز القرآن ثابت وغني عن أن يسلك في بيانه هذا المسلك.

فلا بأس -فيما أرى- من إيراد الحقائق العلمية الثابتة في تفسير القرآن بشرط:

1- ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية.

2- أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الديني لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها.

---

4 - ينظر في ذلك؛ دراسات في علوم القرآن - فهد الرومي (ص: 290-297)، أما في تعريفه، فيقول أمين الخولي: (أنه التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها) = التفسير نشأته تدرجه وتطوره، أمين الخولي ص (49). وقال فهد الرومي: (هو اجتهاد المفسر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي على وجه يظهر به إعجاز للقرآن يدل على مصدره وصلاحيته لكل زمان ومكان)، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، فهد الرومي، [649/2]، وقال محمد الشايع الأحسن أن يقال: (هو تفسير القرآن الكريم بحقائق العلم التجريبي) (ص 24).

3- أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة العلمية.

4- ألا تذكر هذه الأبحاث على أنها هي التفسير الذي لا يدل النص القرآني على سواه، بل تذكر لتوسيع المدلول، وللاستشهاد بها على وجه لا يؤثر بطلانها فيما بعد على قداسة النص القرآني[5]

5 - وقد جعلت الدكتورة هند شلبي موقف العلماء من التفسير العلمي على أقسام أربعة [1- المعارضون مطلقا مع عدم التحيز إلى العلم 2- المعارضون مطلقا مع التحيز إلى العلم 3- المؤيدون مطلقا 4- المؤيدون المحترزون [التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، د. هند شلبي ص 16]

3- الشاطبي والتفسير العلمي

لما أراد الشاطبي البيان لموقفه من التفسير العلمي وضع لذلك مقدمات للولوج في بيان موقفه من ذلك، من خلال:

4- في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام

من القضايا التي أولاها الشاطبي مزيد عناية قضية عربية القرآن الكريم وتنزهه عن العجمة وقد أنزله الله على قوم عرب أجل صنعة عنوا بها تقاول الكلام، فقد كانوا على قدر كبير من العلم بها وكانت شغلهم الشاغل جدا وهزلا، وكأنهم هيئوا ليصلحوا للتحدي بالقرآن الكريم.

وما داموا كذلك فإن معاني تلك اللغة لم تكن نابية عن أفهامهم ومداركهم، وأنزل الله القرآن الكريم ليكون هداية لهم عما كانوا عليه من الضلالة السحيقة، وقد عقلوا رسالة النبي التي جاء بها وانقسموا بعد ذلك إلى ضلال ومهديين.

5- عربية القرآن الكريم:

من شروط التفسير عموما التمكن من العربية، فتفسر ألفاظ القرآن الكريم بما تدل عليه لغة العرب دون تزيّد في تحميل الألفاظ ما لا تحتمله فيُستنبط منها ما لا تدل عليه، ولا ترشد إليه، فللألفاظ معانيها المحددة ودلالاتها الخاصة التي وضعت لها وهذا يمنع التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معان وإطلاقات لم تعرف لها ولم تستعمل فيها، أو إن كانت تلك الألفاظ قد استعملت في شيء منها فباصطلاح حادث في الملة بعد نزول القرآن بأجيال[6]

تحدث الشاطبي عن عربية القرآن فقال إنه: (عربي وبلسان العرب، لا أنه أعجمي ولا بلسان العجم، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة)[7]، **بين قضيتين مسلمتين أن القرآن نزل بلغة العرب، وأنه يطلب فهمه من جهتهم كذلك.**

والذي أراد الشاطبي أن يقف عنده ويؤكد عليه هو قضية فهم القرآن، فهو يرى أنه (لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة فهم لسان العجم، لاختلاف الأوضاع والأساليب، والذي نبه على هذا المأخذ في المسألة هو الشافعي الإمام، في "رسالته" الموضوعة في أصول الفقه، وكثير ممن أتى بعده لم يأخذها هذا المأخذ، فيجب التنبه لذلك)[8]

---

6 - التفسير: نشأته، تدرجه، تطوره، أمين الخولي، ص: 60.

7 - الموافقات (2/ 102)

8 - الموافقات (2/ 104)

وبيّـَن أيضا أن (المقصود بموافقة القرآن معهود العرب: أنه لم يخرج عن لغتهم من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة؛ فمن حروفهم جاءت كلماته، ومن كلماتهم نظمت تراكيبه، وعلى قواعدهم العامة في صياغة هذه المفردات، وتكوين تلك التراكيب جاء تأليفه)[9]

وقد بين الشاطبي التناسب بين الأمية وبين قضية التحدي بالقرآن والإعجاز، فقال: (أنه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزا، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا على غير ما عهدنا، إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام، من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف، فلم تقم الحجة عليهم به)[10]

ومن المسائل المهمة التي بينها الشاطبي في كتابه الموافقات ما يتعلق باللغة العربية من حيث كونها ألفاظ ومفردات، فذكر أن (للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على معان نظران:

أحدهما: من جهة كونها ألفاظا وعبارات مطلقة، دالة على معان مطلقة، وهي **الدلالة الأصلية.**

والثاني: من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة، وهي **الدلالة التابعة**

فالجهة الأولى: هي التي يشترك فيها جميع الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمة دون أخر...

وأما الجهة الثانية: فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإن كل خبر يقتضي في هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار، بحسب [الخبر والمخبر و] المخبر عنه والمخبر به، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب: من الإيضاح، والإخفاء، والإيجاز، والإطناب، وغير ذلك)[11].

فذكر أن تمايز العرب عن غيرها من الأمم غير العربية وتختص به من جهة سعة تصرفها في اللغة وهذا النظر الذي استوقف أهل البلاغة للبيان عنه، يقول الشاطبي (فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف الموادّ، وأمسّها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به ... بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين. لا يوما أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلا،

---

9 – علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات، محمد سالم (ص: 38)

10 – الموافقات (2/ 111)

11 – الموافقات (2/ 105)

ولا الساكن يبغي عن منزله حولا.. وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان)[12]

6- أمية الشريعة:

مما عمل الشاطبي على بيانه في كتابة الموافقات، وهو من قضايا الكتاب المركزية، وقد دلَّل لذلك من جهة القرآن والسنة النبوية الصريحة في ذكر أمية أمة هذه الشريعة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا﴾ [الجمعة: ٢]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى أمة أمية[13]"[14]، وفي الحديث: "نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا"[15].

قال الشاطبي في بيان معنى أمية الأمة: (معنى كونها أمية، أي: منسوبة إلى الأميين، وإن لم تكن كذلك، لزم أن تكون على غير ما عهدوا، فلم تكن لتتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها، فلا بد أن تكون على ما يعهدون، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية، فالشريعة إذا أمية)[16].

وقد خشي الأستاذ دراز الوهم على من يقرأ للشاطبي من جراء العموم الذي كان في كلامه فأخبر مفترضا قائلا: (هل لو جاءت الشريعة على طريق يحتاج لعلوم كونية ووسائل فلسفية، ولكنها صيغت في القالب العربي المعجز لهم عن الإتيان بمثله، بحيث يفهمون معناه والغرض منه، وإن كانوا في تطبيقه وتعرف مبنى أحكامه محتاجين إلى تلك الوسائل، كما إذا بنى أوقات الصلوات الخمس على مواعيد تحتاج إلى الآلات والتقاويم الفلكية، ولم يكتف بالمشاهدات الحسية كما صنع في الزوال والغروب والشفق إلخ، أو بنى الصوم لا على رؤية الهلال بالبصر، بل وضع القاعدة على لزوم معرفة علم الميقات لمعرفة أول رمضان، لو كان الشارع بدل أن يبني الأحكام على الأمور الحسية التي تسع جميع الخلق بناها

---

12 - النبأ العظيم، دراز (ص: 121)

13 - وقد فسر الشاطبي الأمية بقوله: "والأمي منسوب إلى الأم، وهو الباقي على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتابا ولا غيره، فهو على أصل خلقته التي ولد عليها"؛ الموافقات [110/2]

14 - أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم 739، في باب قراءة القرآن، ذكر العلة التي من أجلها سأل النبي صلى الله عليه وسلم ربه معافاته ومغفرته - (3/ 14).

15 - أخرجه البخاري برقم: 1780 في كتاب الصوم باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا نحسب، صحيح البخاري صحيح البخاري (3/ 28)

16 - الموافقات (2/ 111)

على أمور علمية كما صورنا، هل كان ذلك يمنع عن فهم القرآن وغرضه، ويكون الحال مثل ما إذا جاء بلغة أعجمية بالنسبة للعرب؟

الجواب بالنفي، غايته أنه يكون في تكاليفها مشاق على أكثر الخلق بإلزامهم بتعرف هذه الوسائل ليطبقوا أوامر الشريعة حسبما أرادت، أما أنهم يعجزون عن فهم الكتاب حتى لا يكون حجة، فليس بظاهر لأن حجيته عليهم جاءت من جملة أمور أهمها عندهم أنه كلام من جنس كلامهم في كل شيء إلا أنه بأسلوب أعجزهم عن الإتيان بمثله)[17]

7- موقف الشاطبي من توسيع الدعوى على علوم القرآن الكريم:

وقف الشاطبي على بعض التجاوزات التي أراد بعضهم أن يمارسهم على النصوص الشرعية، وذلك (أن كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين، من علوم الطبيعيات، والتعاليم، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، وإلى هذا، فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى)[18]

ويعلق دراز على كلام الشاطبي مبينا أن القرآن الكريم (كونه لم يقصد فيه تقرير شيء من هذه العلوم الكونية ظاهر؛ لأنه ليس بصدد ذلك، أما كونه لا يجيء في طريق دلائله على التوحيد ما ينبني عليه التوسع في إدراكها وإتقان معرفتها إذا لم يكن معروفا عند العرب، فهو محل نظر...

ثم قال: (فمسلم أنه لا يصح أن يتكلف في فهم كتاب الله بتحميله لما لا حاجة بالتشريع والهداية إليه من أنواع العلوم الكونية، ولكن قصره بطريق القطع على ما عند العرب في علمها ومألوفها، فهذا ما لا سبيل إليه، ولا حاجة له)[19].

فالشاطبي يريد أن ينبه إلى قضية مهمة هي حق في مجملها ذلك أنه: (ليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة فبه يوصل إلى علم ما أودع من

---

17 - الموافقات (2/ 111)

18 - الموافقات (2/ 127)

19 - الموافقات (2/ 128)

الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغيره ما هو أداة له، ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه، والله أعلم وبه التوفيق)[20].

فهذا الشاطبي يحاول إغلاق قضية التزيد على القرآن بما لا يقتضيه، ولكن هل كل ما ظنه الشاطبي أنه لا يقتضيه القرآن هو صحيح في نفس الأمر، أم أن الأمر بخلاف ذلك، وأن جملة " ملا يقتضيه القرآن" ضابط صحيح وإنما يقع الخلل والخلاف في تحديد ما لا يقتضيه القرآن حقا وصدقا

8- ضوابط لغوية مهمة:

استطاع الشاطبي في غضون دراسته لقضيتي عربية القرآن وأمية الشريعة أن يجمع جملة من الضوابط اللغوية المهمة التي استعان بها في بيان تينك القضيتين ومنها:

1. لا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب، وليكن شأنه الاعتناء بما شأنه أن تعتني العرب به، والوقوف عند ما حدته[21].
2. إنما يصح في مسلك الأفهام والفهم ما يكون عاما لجميع العرب، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه بحسب الألفاظ والمعاني، فإن الناس في الفهم وتأتي التكليف فيه ليسوا على وزان واحد ولا متقارب، إلا أنهم يتقاربون في الأمور الجمهورية وما والاها، وعلى ذلك جرت مصالحهم في الدنيا، ولم يكونوا بحيث يتعمقون في كلامهم ولا في أعمالهم، إلا بمقدار ما لا يخل بمقاصدهم... فكذلك يلزم أن ينزل فهم الكتاب والسنة، بحيث تكون معانيه مشتركة لجميع العرب، ولذلك أنزل القرآن على سبعة أحرف، واشتركت فيه اللغات حتى كانت قبائل العرب تفهمه...فالحاصل أن الواجب في هذا المقام إجراء الفهم في الشريعة على وزان الاشتراك الجمهوري الذي يسع الأميين كما يسع غيرهم[22].
3. الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناء على أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود[23].

---

20 - الموافقات (2/ 131)

21 - الموافقات (2/ 135)

22 - الموافقات (2/ 136)

23 - الموافقات (2/ 138)

9- موقف الشاطبي من التفسير العلمي:

(تلقى الباحثون والمطلعون كلام المصنف هذا بعناية فائقة، واستفادوا منه في موضوع "التفسير العلمي للقرآن"، وقد وقفوا عنده طويلا وناقشوه، وقلبوا النظر فيه بين مؤيد ومخالف[24].

القارئ لكتاب الموفقات يظهر له جليا اختيار الشاطبي في منع هذا اللون من الألوان التفسير، وأنه انطلاقا من معهود لغة العرب، وأمية الأمة التي أنزل فيها القرآن الكريم، فإن إدخال مثل هذا اللون من التفاسير يعدُّ تزيدا على القرآن الكريم، كما أن الشاطبي لم يكتفي بتقرير هذا القضية من جهة منعها قط، بل ذهب يستجلب أدلة المجوزين لمثل هذا التفسير و (وهذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابا للأميين- وهم العرب- فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأن الشريعة أمية)[25].

وقد تعقب الشاطبي جمهرة من العلماء الذين يرون صحة التفسير العلمي سيما إذا روعيت ضوابطه، وصاحب" التحرير والتنوير" العلامة ابن عاشور هذا المسلك من الشاطبي فنقده بقوله:

" وهو أساس واه لستة وجوه:

الأول: أن ما نبه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال. وهذا باطل.. قال تعالى: ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم﴾ [هود: ٤٩].

الثاني: أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، وهو معجزة باقية ... فلا بد أن يكون فيه ما يصلح أن يتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة.

---

24 - قد مر معنا بيان مواقف العلماء من التفسير العلمي، وتجد تفصيل ذلك في "التحرير والتنوير" "1/ 44، 45"، لابن عاشور، و"القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين" "ص260 وما بعدها" لمحمد صادق عرجون، و"التفسير، معالم حياته، منهجه اليوم" "ص19-27"، و"مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب" "ص287-296" كلاهما لأمين الخولي، وفيه تأييد وتدعيم لكلام الشاطبي هذا بأدلة كثيرة، ثم ظفرت بكلامه في كتابيه السابقين في مادة "تفسير" في "دائرة المعارف الإسلامية" "5/ 348-374" له أيضا، و"اتجاهات التفسير في العصر الراهن" "ص297-302" لعبد المجيد المحتسب.

وانظر في التفسير العلمي أيضا: "مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه" "ص231-250" لعدنان زرزور، و"التفسير العلمي للقرآن في الميزان" لأحمد عمر أبو حجر.

وانْظُر فِي هَذَا المبحث الإتقان (348/2) ، ومناهل الْعرْفَان (565/1) ، ومباحث فِي عُلُوم الْقُرْآن، ص (270) ، واتجاهات التَّفْسِير فِي الْعَصْر الرَّاهِن، ص (297) ، وبحوث فِي أصُول التَّفْسِير ومناهجه، ص (97) وَمَا بعْدهَا.

25 - علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات، محمد سالم (ص: 166)

الثالث: أن السلف قالوا إن القرآن لا تنقضي عجائبه.. يعنون معانيه. ولو كان كما قال الشاطبي؛ لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه.

الرابع: أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تف به الأسفار المتكاثرة.

الخامس: أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء لا يقتضي إلّا أن يكون المعنى الأصلي مفهوما لهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية؛ فقد تهيأ لفهمه أقوام، وحجب عنه أقوام .. ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

السادس: أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعا إلى مقاصده فمن ساعد عليه. وإن كان فيما يرجع إليها؛ فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا أو فصلوا وفرعوا .. في علوم عنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقفّي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية"[26].

26 - التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (1/ 44-45)

10- خاتمة:

في خاتمة هذه المداخلة المقتضبة يمكننا الإدلاء بالنتائج الموقوف عليها:

1. ضرورة اعتبار اللغة العربية في الاعتداد بالتفسير العلمي للقرآن الكريم
2. يعد الشاطبي من العلماء الذي اعتدوا بمراعاة لغة العرب في كل شيء يتعلق بالقرآن الكريم بحكم عربيته
3. يضيف الشاطبي مراعاة أمية الأمة التي أنزل فيها القرآن الكريم، وهذا هو الأمر الذي جعل الشاطبي يضيق دائرة التفسير العلمي تضييقا لا يوافق عليه، ولذلك استدرك عليه دراز في تعليقة على كلامه.
4. رصد الشاطبي جملة من الضوابط اللغوية الهامة التي تفيد الباحثين في مجال التفسير عموما والتفسير العلمي على وجه الخصوص.

ومما يوصى به في هذا المقام الدعوة إلى تأمل موقف الشاطبي من التفسير العلمي، وعدم التسرع في عده من العلماء الرافضين للتفسير العلمي مطلقا، بل كلامه فيه ما قد يجعل الناظر يعدل عن إطلاق الحكم.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الناشر: طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى 1407هـ- 1986م.

2- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

3- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ.

4- التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق، د. هند شلبي، تونس 1406هـ- 1986م. د م ط.

5- التفسير نشأته تدرجه وتطوره، أمين الخولي، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع السلسلة: كتب دائرة المعارف الإسلامية، 01يناير 1982م.

6- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه؛ صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة الطبعة: الأولى، 1422هـ.

7- دراسات في علوم القرآن الكريم، المؤلف: أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الناشر: حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، الطبعة: الثانية عشرة 1424هـ - 2003م.

8- علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات، المؤلف: محمد سالم أبو عاصي، الناشر: دار البصائر – القاهرة، الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.

9- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الرابع 04 رجب 1411هفبراير 1991،

10- معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، المؤلف: عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1409 هـ - 1988 م.

11- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى : 790هـ)، المحقق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر : دار ابن عفان، الطبعة : الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م.

12- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المؤلف: أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد السوداني، أبو العباس (المتوفى: 1036 هـ)، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، الناشر: دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطبعة: الثانية، 2000 م.